النقد الفنى

بين المذهبين الاجتماعى والفردى

فى الحياة قوانين ندرك فعلها وأثرها ولكننا نجهل طبيعتها وكنهها ، ومن هذه القوانين قانون المتناقضات الذى يقضى بأن كل فكرة تنتشر وتسود وتستقر سلطتها تظهر فى آثارها فكرة جديدة مناقضة لها وتطاردها وتحاول تقليص ظلها وإزالتها ومحوها ، فإذا تمت الغلبة لهذه الفكرة الجديدة وواتتها الظروف المسعفة والفرص السانحة ، وخلا لها الجو وعقدت لها ألوية النصر ، أخذت تظهر فى الأفق طلائع فكرة أخرى حديثة تشمل الفكرتين المتناقضتين وتضمها تحت جناحيها . وترى الحضارات والمذاهب الفكرية والنظريات العلمية والأديان والشرائع ومختلف ما يصدر عن العقل الإنسانى والعواطف البشرية فى شتيت صوره وعديد ألوانه خاضعاً لهذا القانون ، وقد ظهرت الحضارة الرومانية بقوانينها المعروفة وصبغتها السياسية العملية بعد الحضارة اليونانية التى امتازت بنزعتها الفنية وأسلوبها الفكرى ثم امتزجت الحضارتان والتقتا فى الحضارة الإغريقية الرومانية . وظهر فى الفلسفة مذهب أرسطو وسمته العملية ظاهرة بعد مذهب أفلاطون ونزعته المثالية غير منكورة ، وكذلك جاء «كانت» بعد دافيد هيوم ، وساد مذهب شوبنهاور وتشاؤمه بعد تغلب مذهب هجل وتفاؤله ، وجاءت فى أثرهما فلسفة إدوارد فون هارتمان وهى جامعة لعناصر مذهبى هجل وشوبنهاور ومحاولة للتوفيق بين أغراضها ، وقد نشأت الديانة المسيحية السمحاء القائمة على الحب بعد الديانة اليهودية القائمة على الصرامة والشدة ومعرفة الواجب . ثم

جاءت الديانة الإسلامية وأسمى صفاتها الحرص على العدالة وهى تتضمن عنصرى الحب ومعرفة الواجب.

وكان النقد فى القرن التاسع عشر خاضعاً فى تطوره لقانون المتناقضات . فظهر فى أوائله المذهب الاجتماعى ، ثم تلاه المذهب الفردى ، إلى أن ساد فى الأيام الأخيرة مذهب مكون من الاثنين وهو المذهب الاجتماعى الفردى.

وفى طليعة النقاد الذين أثاروا مسألة النقد الاجتماعى النقادة الألمانى شلجل فى كتابه عن تاريخ الأدب ، وذلك إذ عرضت له مسألة الدراما وعلاقتها بالعصر الذى نشأت فيه وبالبيئة الاجتماعية ، وقد انتهى فى بحثها إلى نتيجة صائبة ، وهى أن لكل قوم أدباً خاصاً يعبر عن نفسيتهم ويصف شعورهم ويستمد أهميته وقوته من خصائصهم القومية وماضيهم التاريخى . وقد فتح هذا الرأى للنقاد كوى ينفذ منها الضوء وبسط لهم أمداً فسيحاً ، وعلموا منه أن الفوارق الملحوظة بين آداب الأمم واختلافات القوالب والصور المعبرة عن الأفكار ومجانبتها السير على وتيرة واحدة ليست من أسباب النقص والتدهور ولا من سمات التخلف . بل هى على نقيض ذلك من المزايا الجديرة بالتقدير والبحث لأن من أسمى صفات الأدب وألزم واجباته وأبعد غاياته ومنازعه تمثيل الخصائص القومية ورسم ملامحها المختلفة وشمائلها المتنوعة ، وإعجابنا بشاعر مثل شكسبير لا يناقض إعجابنا بمثل سوفوكليز ، وتقديرنا للبانثيون وآيات الفن اليونانى لا يقتضى الحط من قيمة الفن المصرى المخالف له.

وبذلك أزيلت الحواجز وبطلت النعرات التى كانت تعوق الأمم عن تذوق آداب الغير وتقدير فنه وأصبحت كل صورة من صور الفكر الإنسانى وكل مظهر من مظاهر الشعور وكل لون من ألوان العواطف شيئاً جديراً بالتأمل والبحث ، وزادت فى الوقت نفسه العناية بالآداب القومية لأنها هى المعبرة عن

حياة الشعب والممثلة لشخصيته . واستثمرت النهضات القومية هذه الفكرية واتخذتها وسيلة من وسائل إثارة النخوة القومية وتحريك الشعور الوطنى إذ استبان للقادة والزعماء أن النهوض بالأدب والفن يقتضى النهوض بالأمة وتحريرها لتظهر شخصيتها وتعبر عن نفسها .

على أن النقد لم يكتف بهذه النتيجة المثمرة ولم يقنع بها ، لأن الوقوف على علاقة أى أثر من الآثار الفنية بعصره والبيئة التى درج بها ونشأ فى ظلالها ليست طريقة كافية للحكم عليه وتقدير قيمته ، وذلك لأنه قد يكون ممثلا لأفكار عصره أحسن تمثيل وأوفاه ولكنه مع ذلك مجرد من قوة الفن وعاطل من جماله ، وكيف نفاضل ونوازن بين شعر وشعر وأدب وأدب إذا كان كلاهما تعبيراً أميناً وصورة صادقة للبيئة والأحوال الاجتماعية ؟ وقد ينبغ مؤلفان فى وقت واحد ويعبران عن روح العصر المستترة ودخيلته المطوية وما يراود أهله من الآمال وما يساورهم من المخاوف ولكن تتفاوت مع ذلك أقدارهما وتختلف قيمتهما فما هو مقياس قوتهما ومعيار أقدارهما ؟

أخذ النقاد يجاهدون هذه المشكلات ويحاولون الاهتداء إلى جلاء غياهبها والكشف عن أسرارها فغشيتهم الحيرة وأدركهم الاضطراب . وفى ذلك الوقت أشرق على العالم ضوء مذهب فلسفى جديد كما تشرق أنوار الفجر على أمواج البحر اللجى ، وهذا المذهب هو مذهب الفيلسوف الألمانى هجل ، وهو فى طليعة فلاسفة العالم النظريين . وقد غزا القرن التاسع عشر بطائفة كبيرة من الأفكار شغلته زمنا ليس بالقصير ولا تزال إلى اليوم مرجعا للبحث وموضوعا للجدل والنقاش . وقد رأى هجل بثاقب فكره أن محاكاة الطبيعة عمل آلى لافائدة منه ولا غناء فيه وإلا فلماذا لا يكون التصوير الشمسى فنا أيضاً ؟ وما فائدة إعادة تصوير الطبيعة بقضها وقضيضها وعمل نماذج منها ؟ وفضلا عن ذلك

فإن التطلع إلى محاكاة الطبيعة محاولة مقضى عليها بالفشل لأن مشاهد الطبيعة وصورها أو حوادث الحياة البشرية ماثلة أمامنا فى كل وقت وبكل مكان على حين أن الفن محدود فى وسائله ومحاولاته وأين نجد فى الطبيعة مثالا للبانثيون أو لنغمة من نغمات بيتهوفن ؟ ليس غرض الفن المحاكاة وإنما غرضه أن يدنى من حواسنا ومشاعرنا كل ما هو كائن فى عقل الإنسان ومهمته هى إيقاظ المشاعر الغافية والميول الراقدة وإرغام الإنسان سواء كان مثقفاً أم خلواً من الثقافة على أن يشعر بكل ما يثير القلب ويضطرب فى النفس ، ولا يوجد العمل الفنى إلا مصحوبا بالفكرة ، ولا بد أن تظهر فيه قوة الفنان المبدعة المعبرة عن الفكرة ، ولا يقوم الفن على الفكرة وحدها أو على التصور المجرد الخالص ، لأن التصور المجرد أساس العلم والتفكير الفلسفى ، وفى الفن تمتزج الفكرة بالصورة امتزاجا تاما ، ويتصل التصور المجرد بالتمثيل الخارجى اتصالا محكماً وثيقاً ، ومقدرة الفنان تمد الفكرة بالصورة الواضحة وتهبها الحياة والحركة حتى تتمثل الفكرة فى شكل خيال أو صورة إحساس أو فى شكل خلق حى نابض أو شخصية متحركة واضحة جلية ، ويتخذ الفنان الأشياء الطبيعية مادة ذهنية لتوضيح فكرته وللتعبير عما يدور فى خاطره ، وليست مزية العمل الفنى متوقفة على قيمة الفكرة المجردة فى عقل الفنان وإنما على مقدار ما ينفحها به من عالم الواقع ودنيا الحقائق الملموسة ، فإياجو فى رواية عطيل التى وضعها شكسبير مثال من أمثلة الرذيلة وانتكاس الأخلاق ولكن نصيبه من الفن والحياة أوفر من نصيب أى شخص من الأشخاص العاديين الذين تراهم العين وتلمسهم اليد ، وذلك لأن شكسبير أفاض عليه حياة جعلته حاضر المثال حى الصورة ، وسلط عليه ضوءا جعلنا نلمح خفايا نفسه وبواعث سلوكه ، وفصل الفكرة عن الصورة مفسدة للأعمال الفنية لأن جمال الفن قائم على امتزاج الفكرة بالصورة .

ويستخلص من ذلك أن وظيفة الفن هى نقل الفكرة المجردة إلى حقيقة حية ملموسة ، ويترتب على ذلك أن البحث عن قوانين الفن وقواعده لا يكون إلا فى دائرةالقوانين الفكرية وكيفية التعبير عن الأفكار ، ونلمح من ذلك أن هجل حول مجرى الأفكار إلى ناحية جديدة . وكان من أثر ذلك ظهور المذهب الفردى الذى يبحث عن المشاعر فى الشاعر نفسه ولا يرتضى أن يبذل جهداً كبيراً فى توصيف بيئته والإلمام بأحوال عصره وإنما يكتفى بأن يمر بها لماماً وأن يعرضها عرضاً سريعاً قال دى سانكتيز De Sanctis وهو ناقد إيطالى من ممثلى هذا المذهب : «إن الشاعر وقد تملكته الأخيلة واستأثرت به بنات الأفكار لاينظم كل مايتراءى له أو مايشعر به ويفكر فيه . وإنما يكتفى بأن يأتى بالخصائص المطلوبة لجعل تصوراته وأفكاره حقائق ملموسة يحسها قراؤه . وإذا رزق الناقد روحاً فنيًّا فإنه يستثار مما يقرؤه ومما تبصره عينه فينفذ إلى باطن عقل الفنان ويتغلغل إلى صميم وجدانه حيث يدرك بالإلهام واللقانة الفكرة المتغلبة على الشاعر المتصرفة به ، والناقد الصادق يسير مع المؤلف جنباً إلى جنب ويراقب نشوء أفكاره ومولدها ونموها وترعرعها وفى خلال اقتفائه آثارها ومتابعته لأدوارها يعيد فى نفسه – فى بصيرة ووعى – خلق كل ما تناوله الشاعر ولمحه وعبر عنه من غير قصد ولا تعمد وإنما أدركه بالوحى والإلهام والشعور الباطنى . والناقد يجعل الشاعر أصح فهماً وأحسن تقديراً لقوته . وإذا كان للناقد أصالة رأى وحرص على استيفاء البحث فإنه لا يكتفى بتقدير قيمة الفنان وأعماله منفصلة قائمة بذاتها بل يقدرها بنسبة علاقتها بعصره وبسير التاريخ بوجه عام .

وهنالك مذهب آخر من مذاهب النقد يرى أن الفن ليس مما تجود به قرائح الأفراد وإنما مصدره الجماعة وروح الشعب فهو ثمرة إحساسها ونتيجة تفكيرها ،

وروح الجماعة التى لم تتجسم فى شخصية فذة هى التى أوجدت الأغانى الشعبية وخلقت الأساطير والخرافات والأقصوصات وابتكرت الأمثال وشوارد الحكم ، وأكثر ضروب الآداب من منشآت خيال هذا الكائن المجتمع المسمى « بالناس » ، وهذا الفنان المبدع هو الذى يخلق المواد الشعرية التى تسيطر عليها عبقرية شخصية وتستوعبها وتطبعها بطابعها ، وتنشأ أعظم مبتكرات الفن وأبقى آياته من امتزاج عمل الجماعة بعمل الفرد ، ولولا ذلك لما استطاع هومر أن يملى إلياذته وأوديسته لأنهما من نبت اللغة وثمرة الميثولوجيا اللتين ولدتهما الروح الإغريقية ، فهومر هو اليونان القديمة متمثلة فى شخصية شاعرة بنفسها مدركة لوجودها ، وعمل الشاعر لا يفهم على حقيقته إذا نظرنا إليه منفصلا عن عمل الجماعة ، ولماذا نقصر التاريخ على حياة الأفراد والعبقريين ونتجاهل الجماعات وهى التى تنهض بأكبر الأعمال ؟ .

وفى هذا المذهب مقدار كبير من الصحة وشىء من الغلو ، وهو المرحلة الأخيرة نحو المذهب الحديث الذى لا يبخس الفرد حقه ولا ينكر على الجماعة نصيبها ، بل ينظر إلى الفنان من ناحيتين : من ناحية نفسه ونوازعها الخاصة وبواعثها الدخيلة وتركيب عقله وطريقة تفكيره ، ومن ناحية عصره ومستوى حضارته ، فشعر المتنبى مثلا هو ثمرة الحالة الأدبية والسياسية لعصره ، وهو فى الوقت نفسه ثمرة عقل خاص ونفس فذة ، وصدى نغمات بعضها مألوف فى عصره ومسموع فى بيئته ، وبعضها غريب مستبهم النشأة والأصل يترامى إلينا من نواح تقف على حدودها بحوث التاريخ وطرائق العلم دون أن تستطيع السير فى مجاهلها واستكشاف أصقاعها ، والطريقة الاجتماعية فى النقد مدارها البحث والتحليل ورد العناصر إلى أصولها أما الطريقة الفردية فلا تنال بالكد والاجتهاد وحدهما وإنما تستشف بنوع من الوحى وضرب من المشاهدة الروحية لأن عبقرية

الفنان – بعد أن يقول عنها العلم والتاريخ كل ما فى وسعهما قوله – ستبقى غريبة من الغرائب وسرا من خفى الأسرار لا تدركه إلا عبقرية أخرى غريبة غامضة السر وهى عبقرية الناقد الملهم .